٤

النفائس

سلسلة أدبية تبحث في الشعر والنثر
تهم الطالب والباحث والمدرس

مراحل النثر القديم

الجزء الثاني

بقلم

طه محمد القاضي

(ليسانس في الادب العربي)

بيروت — حزيران ١٩٥٥

الطبعة الاولى

الفصل الرابع

الامثال القديمة

قال لي صاحبي وهو يتثائب والكرى يداعب اجفانه ويرسل ابتسامات السخرية والأستهزاء والاذدراء .

(الآن ظهر الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً)

قلت :

(من طبيعة الحق ان يظهر يا صاحبي ومن طبيعة الباطل ان يزهق والحق يعلو ولا يعلى عليه . ولكن ماهذا الحق الذي ظهر؟ وما هذا الباطل الذي زهق ؟)

قال صاحبي

قدر لي في هذا الاسبوع ان اقف على كتابك « احاديث الامسيات » او قدر لكتابك « احاديث الامسيات » ان يقع بين يدي في هذا الاسبوع . ويبدو لي من مطالعة هذا الكتاب الصغير انك تسير على نفس القاعدة التي يسير عليها الدكتور طه حسين في كتاباته وانك تجاريه في اسلوبه وتحاول تقليده في هذا الاسلوب ما استطعت الى ذلك سبيلا . ولا ادري ما السر في

حملتك على هذا الاديب الذي تحاول ان تنهج نهجه ولا ادري ما الدافع الذي يدفعك الى ان تحاربه بسلاحه)

قلت

(الم اقل لك اكثر من مرة يا صاحبي ان الدكتور طه حسين اديب مشهور لا يجديني تحاملي عليه نفعاً ولا يسبب لي كرهي اليه ضراً ولا اطمع في محاربة من تربع على عرش الادب وقدر له الحظ أن يرتقي الى زروة هذا الادب وما زلت اهيء نفسي وابحث عن الوسائل التي تمكنني من السير في بداية هذا الطريق .

وليست اساليب الكتابة ومفردات اللغة ملك الدكتور طه حسين وامثاله من الكتاب والادباء ، ولكنهـا ملك كل اديب و كاتب ، وادوات طيعة في يد كل كاتب واديب ، يتصرف بها كيف يشاء وينحو بها النحو الذي يريد .

قال صاحبي

(دعنا من الدكتور طه حسين ومن الحديث عنه وعد بنا الى ما نحن بصدده وحدثنا عن الامثال القديمة واوجز الحديث في هذا الموضوع

قلت

(بين يدينا ثروة نفيسة يا صاحبي مما ينسب الى العصر الجاهلي من الامثال نضعها بين يدي القارىء بشيء من الايجاز والتحفظ مجتهدين في الغربلة والنخل قدر الامكان ، علنا نثبت منها ما يصح ان ندعوه وثيقة نثرية ، يعتمد عليها مؤرخو الادب ولا سيما النثر منه . ونحن لا نزعم يا صاحبي أن ما نقله لنا الرواة كالمفضل الضبي وابي عبيدة والاصمعي من الامثال وليد العصر الجاهلي وحده ، لكننا نرى ان هـذه الامثال قيلت في العصر الجاهلي وصدر الاسلام وهي تصور لنـا البيئة البدوية القديمة .

ويبدو لنا ان الرواة لم يكتفوا بنقل هذه الامثال كما هي ، وبصيغتها الاصلية ، بل انهم هذبوها واقاموا اود بعضها الاعرابي وجاء هذا التراث الضخم من الامثال بمثابـة عبارات تضرب في حوادث مشبهة للحوادث الاصليـة التي جاءت فيها ، وقد عُني علماء العصر العباسي بدراستها ، وكان في طليعتهم المفضل الضبي وابو عبيدة ، ثم جاء من بعدهما ابو الهلال العسكري في كتابه (جمهرة الامثال) والميداني في كتابه (مجمع الامثال) وهو يقول في مقدمته انه رجع في تأليفه الى ما يربو على خمسين كتابا

وقد درج كل من الفوا في الامثال على ان يرتبوها حسب حروفها الاولى على نحو ما ترتب المعاجم الفاظها ، ولذلك تراهم

يوزعونها عادة تسعة وعشرين بابا بعدد ابواب الحروف الهجائية . وهم بعد هذا التوزيع يفسرونها ويقصون احيانا حوادثها التي جاءت فيهـــا معتمدين على ضروب من الظن والتخمين مما جعل الاستاذ نيكلسون يزعم ان قيمة الامثال محدودة بالنسبة للعصر الجاهلي [1] . وله الحق فيما يزعمه فقد طال العهد بين العصر الجاهلي وبين عصر هؤلاء المفسرين ، وانه لينبغي ان نثني على على صنيعهم ، ولكن مع شيء من الحذر في الاخذ بتفسيرهم وقصصهم ما دمنا نتهم القصص الجاهلي عامة وما نسب الى عرب الجاهلية من اخبار واحداث

وثم مشكلة اخرى ينبغي ان نلتفت اليها في بحث الامثال وهي أن كثيراً منها مبهم غامض لا يكاد الانسان يفهمه الا اذا رجع الى شراح الامثال يستعين بهم ، فمن ذلك قول العرب « بعين قاارينك » فان معناه اسرع ، وهو معنى لا يفهم من اللفظ بتاتاً ، وقد علق ابو هلال العسكري على هذا المثل بقوله هو من الكلام الذي قد عرف معنـاه سماعاً من غير ان يدل

Nicholson Lil, Hist, of Arabs, P. 31 (1)

عليه لفظه [١] وبجانب هـذا النوع الذي لا يدل عليه لفظه نجد نوعاً آخر اضطرب الشراح في تأويله وفهمه على نحو ما نجد في هذا المثل : « لا يعرف الهر من البر » فقد قال قوم البر الفأره: ليستقيم لهم المعنى مع الهر [٢] ، وقال بعض الكوفيين في تفسيره « لا يعرف من يهر عليه من يبره [٣] . ونقل السيوطي عن ابن فارس انه قيل : « الهر دعاء الغنم والبر سوقها وقيل : الهر ولد السنور والبر ولد الثعلب [٤] . على انه ينبغي ان نعلم ان هذه الامثال الغامضة قليلة ، اما الكثيرة فواضحة بينة .

وقد اكثر العرب من صنع الامثـــال وضربها في جميع احداثهم وما يتصون من اجتماعهم وحياتهم في الحرب وفي السلم من نحو : ما يوم حليمة بسر ـ قلب له ظهر المجن ـ قبل الرماء تملأ الكنائن ـ قطعت جهيزة قــول كل خطيب ـ ماء ولا كصداء ـ استنوق الجمل ـ مرعى ولا كالسعدان ، وغير ذلك كثير .

وهناك جماعة اشتهرت في العصر الجاهلي بكثرة ما انزلق على

---

(١) جمهرة الامثال للعسكري على الهامش (٢) الجمهرة لابن دريد طبع الهند ١ / ٩٨ مجمع الامثال طبع المطبعة الخيرية ١ / ١٦٨ (٣) نفس المصدر ١ / ٨٩ (٤) المزهر للسيوطي طبع ١ / ٥٠٠

السنتها من هذه الامثال ، وممن عرف بذلك لقمان عاد ، وهو غير لقمان الحكيم الذي جاء في القرآن الكريم [1] . وتذهب دائرة المعارف الاسلامية – في مادة لقمان -- الى ان شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل : (١) مرحلة جاهلية وفيها نجد لقمان عاد ، صاحب قصة النسور ، اذ يزعمون انه عاش عمر سبعة نسور كلما مات نسر قام بعده نسر ، وكان آخر هذه النسور لبد الذي ذكره الشعراء كثيراً في اشعارهم [2] (٢) ومرحلة قرآنية وفيها نجد لقمان صاحب السورة الخاصة به ، وقد ربط المفسرون بين لقمان هذا وبين بلعم الحكيم الاسرائيلي فظنوا انه هو لقمان المذكور في القرآن والدليل على ذلك انهم ينسبونه على هذا النحو لقمان بن باعورا وهو نفس نسب بلعم الاسرائيلي (٣) ثم مرحلة متأخرة وهي مرحلة مرجلة نسج فيها حول لقمان قصص كثير على نحو ما نجد في كتاب «امثال لقمان » وهو مكتوب باسلوب مبتذل .

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ (الطبعة الاولى) نشر السندوبي ١/١٣٦ وكذلك خزانة الادب للبغدادي طبع بولاق ٢ / ٧٧

(٢) انظر كتاب المعمرين لابي حاتم السجستاني طبع مطبعة السعادة ص ٣ ، وكذلك حياة الحيوان للدميرى طبع المطبعة الخيرية ٢ / ٣٠٦

ولا تستطيع ان تسلم بما تقوله دائرة المعارف الا اذا سلمنا بان لقمان عاد هو نفس لقمان المذكور في القرآن الكريم وليس بين ايدينا ما يثبت ذلك ، بل على العكس نرى علماء العرب يفرقون بينهما دائماً ، وقد روت كتب الامثال عن الاول بعض امثال له [1] بينما روى الامام مالك في كتابه « الموطأ » بعض امثال لقمان الحكيم . ونحن نجد كثيراً من سادة القبائل في العصر الجاهلي يعرفون بالحكم وضرب الامثال ، وممن عرف بذلك اكثم بن صيفي التميمي [2] ، وعامر بن الظرب [3] وكان حكما للعرب تحتكم اليه ، وقد افتخر به ذو الاصبع العدواني في بعض شعره [4] ويكاد لا يوجد في العصر الجاهلي سيد او خطيب مشهور الا وتضاف اليه جملة من الحكم والامثال .

ونرى يا صاحبي ان نرد هذه الامثال الى ثلاثة مصادر هي :

---

(١) مجمع الامثال للميداني ١ / ٢٣ وايضاً ١ / ٥٦

(٢) انظر بعض حكم اكثم في مجمع الامثال للميداني ٢ / ١٤٥ وجمهرة الامثال للعسكري على هامش مجمع الامثال ١ / ١٢٠ وشرح ابن ابي الحديد على نهج البلاغة ٤ / ١٥٥

(٣) انظر بعض حكم عامر في البيان والتبيين ٢ / ٦٣ وكذلك مجمع الامثال ١ - ٢١١ وايضاً ٢ - ١٨٣

(٤) اغاني طبع دار الكتب ٣ - ٩٠

أ ـ الشعر القديم كقولهم

١ ـ « اي الرجال المهذب » . وهو عجز لبيت للنابغة

ولست بمستبق اخاً لا تلمه   على شعث اي الرجال المهذب

٢ ـ « خلا لك الجو فبيضي واصفري » وهو عجز لبيت لطرفه

يا لك من قبرة بمعمر   خلا لك الجو فبيضي واصفري

٣ ـ « رضيت من الغنيمة بالاياب وهو عجز لبيت لأمرىء القيس

وقد طوفت في الافاق حتى   رضيت من الغنيمة بالاياب

٤ ـ «عند النطاح يغلب الكبش الاجم »
٥ ـ «البس لكل حالة لبوسها »
} وهما من الرجز القديم

ب ـ الامثال

واما الامثال التي نرى ان نضعها في باب الانشاء العالي يا صاحبي فهي الامثال التي وردت في القرآن والحديث وما حكاه الحكماء والخطباء ، وما روي عن اناس مجهولين ، وتظهر فيه الصنعة الانشائية كقولهم :

١ ـ « رب عجلة تهب ريثاً » « ورب فزوقة يدعى ليثاً »

٢ — « المرء تواق الى ما لم ينل »

٣ — وقولهم « اطرق كرا (١) ان النعامة في القرى »

فاذا انعمنا النظر يا صاحبي في هذه الامثال رأينا ان فيها من اثر الصنعة الكلامية ما لا يصدر الا عمن عرفوا فن الكلام ومارسوه واتقنوا مداخله

ج — اقوال العامة .

ومما وصلنا من اقوال العامة الامثال التي اصبحت فيما بعد من باب الانشاء العالي لانها لم تبق كما كانت عليه وانما هذبت على مر الزمن كقولهم :

١ — « ما لي سارحة ولا رائحة » اي ليس له شيء

٢ — « بقل شهر وشوك دهر » لمن يقصر خيره ويطول شره

٣ — « برز نارك وان هزلت فارك » أي آثر الضيف بما عندك وان نهكت جمل وافتقرت

٤ — « شر الناس من ملحه على ركبته » يضرب للنزيق السريع الغضب

٥ — « لا ينبث البغلة الا الحقلة » يضرب للكلمة الخسيسة

---

(١) كرا ترخيم كروان وهو طائر معروف ويضرب لمن لا غناء عنده ويتكلم

من الرجل الخسيس

ويبدو لنا يا صاحبي ان هذه الامثال تمثل لغة العامة وليس فيها اثر للصنعة الانشائية ، والتكلف اللغوي ، ونحن لا ننكر انه كان هنالك لغة عاميـة يتعاطاها الناس في حياتهم العادية ، ولكنها لم تكن بعيدة عن الفصحى بعدها اليوم ، بعد ان اختلط العرب بالاعاجم وبعد ان اصبحت اللغة العربية لغة الامم المغلوبة ولا بد لنا من القاء نظرة عابرة على الامثال الفصيحة ، لأننا نرى فيها افضل شواهد يمكن ان يتعرف بها الباحث الى النثر الذي نشأ في الاوساط الادبية في ذلك الحين . وتمتاز الامثال الفصيحة بالقصر وحسن المبنى ، وجودة السبك ، وهذا مما سهل حفظها على الذاكرة ، وجعلها تنتقل من جيل الى جيل ، ومن هذه الامثال يا صاحبي قولهم :

« احلبت ناقتك ام اجلبت » ، اي انتجت إناثاً فتحلبها ام ذكوراً فتجلبها للبيـع . « ضوارب بثت لعرف باليد »

الضوارب : النياق التي تضرب حالبها ؛ والعرف : قروح تخرج باليد . اي نيـــاق سيقت لذي قروح بيده ليحلبها . يضرب لمن كلف لما يعجز عنه ؛ « كمستبضع التمر الى هجر » قال ابو عبيدة وهو من الامثـال القديمة . وقد اقتبسه النابغة

الجعدي ، فقال :

وان امرءاً أهدى اليـــك قصيدة
كمستبضع تمراً الى ارض خيبرا

«لا في العير ولا في النفير» اول ما قاله ابو سفيان ويضرب لمن يحط امره ويصغر قدره .

ومجمل القول ، اننـا ذكرنا قليلا من كثير مما وصلنا من الامثال القديمـــة ؛ ونحن لا ننسب كل ما جمع من الامثال بالعصر الجاهلي ، بـل نرجح أنها لا تخلو من النحل ؛ لان الاسلام لم يغير من طبيعة البداوة وعاداتها ، الا فيما يتصل بالعاطفة الدينية ؛ ويكفي ان نقول ان شعر شعراء البـلاط الاموي ، وخاصة شعر الاخطل والفرزدق وجرير ، جاء متمما للشعر القديم وتمتاز الامثال القديمة بتقديم المسند على المسند اليه ، والقيود على المقيدات ، وبقصر العبارة ، وشدة الاقتضاب والتلميح ، وبعد الاشارة والايماء . ويبدو انهم كانوا يتعمدون الانغام الموسيقية في امثالهم لتسهل على الحفظ ، كقولهم : « وعند جهينه الخبر اليقين » ولا ضرورة لاقحام الواو في هذا المثل ، الا لاتمام النغم الموسيقي ، وما يصدق على هذا المثل يصدق على سواه مما يضيق

المقام بذكره هنا .

ولكننا نرى أن ننقل لك طائفة قليلة من هذه الأمثال التي يسودها النغم الموسيقي حتى لا تملنا .

أن البغات بأرضنا يستنسر – في بيته يؤتى الحكم – ان البلاء موكل بالمنطق – كل فتاة بأبيها معجبة – فان غداً لناظره قريب – الى حيث القت رحلها أم قشعم – ان الشقي وافد البراجم – إياك اعني ، فاسمعي يا جارة .

الفصل الخامس

سجع الكهان

قال لي صاحبي متهكما ، مرسلا التهكمات الواحدة تلو الاخرى : « الم اقل لك انك متأثر باسلوب الدكتور طه حسين ايما تأثر ، ومع ذلك فانك تتحامل عليه وتحاول تغطية نور الشمس براحتك ، وتتطاول على من لست اهلا للتطاول عليه.. »

قلت : « لم اقرأ يا صاحبي من مؤلفات الدكتور طه حسين على كثرتها ، الا النزر اليسير ، حتى اتأثر باسلوبه واحذو حذوه واكتب بطريقته . ويبدو لي ، يا صاحبي انك تسيء الظن بي وتتهمني بما ليس بي ، وترى انني اتحامل على الدكتور طه حسين فتسخر مني وتتهكم علي . والواقع انني في غنى عن التحامل على هذا الاديب وعلى سواه من الادباء ، ولكن لي رأي احببت ان ابديه لك في هذا الحديث ، ففهمت منه ما لا يجب ان يفهمه العقلاء ، وعلى كل حال فلا لوم عليك ولا تثريب ، ولك مطلق الحرية في ابداء رايك ، وفي مظاهرة من تشاء ، ومناهضة من تشاء . وأرى يا صاحبي ان لا تشت بي عن الموضوع ،

وان تعفيني من هذا النقاش ، لاعود بك الى موضوع بحثنا ، وهو سجع الكهان .

[كانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعي التكهن وانها تطلع على الغيب ، وكان كل كاهن منها يزعم انه سخر له رئي [1] من الجن يسترق له السمع فيعرف — عن طريقه — ما كتب للناس في الواح الغد . وممن اشتهروا بهذا التكهن في الجاهلية سطيح الذئبي وشق بن مصعب الانماري ، واليهما فزع نصر بن ربيعة ملك اليمن في تفسير رؤيا له [2] . ومن كهانهم ايضاً عوف بن ربيعة الاسدي [3] والمأمون الحارثي [4] ومسلمه الخزاعي [5] وسواد بن قارب المدوسي وقد ادرك

---

(١) البيان والتبيين ١ - ١٩٥

(٢) الكامل لابن الاثير طبع ليدن ١ - ٣٠١ وانظر السيرة النبوية لابن هشام ١ - ١٥

(٣) اغاني طبع دار الكتب ٩ - ٨٤

(٤) اغاني طبع الساسي ٥ - ٧٠

(٥) السيرة الحلبية طبع بولاق ١ - ٥

الاسلام [١] ومن اشهرهم واعظمهم نرى سلمة [٢] الكاهن . وقد وجد بجانب هؤلاء الكهنة بعض نسوة عرفن التكهن من مثل الشعثاء [٣] الكاهنة ، وكاهنة ذي الخلصة [٤] والكاهنة السعدية [٥] والزرقاء بنت زهير [٦] والعيطلة القرشية [٧] .]

[وقد روت كتب التاريخ والأدب طائفة من اقوال هؤلاء الكهان وخطابتهم ، وكلها تذهب مذهب السجع . واكبر الظن ان كثيراً مما روي عنهم مصنوع وخاصة ما يرويه القالي في كتابه الامالي . وانه لمن الخطأ ان يعتمد باحث على كل ما روي في هذا الباب . على اننا نستطيع بعد ان نرفض اكثر ما يروى من كلامهم أن نعود فنظن بعض الظن – غير متحيزين – أن الكهان يسجعون في خطابتهم ، والا لما استقر عند جميع من نحلوهم بعض الاقوال والخطب انهم يعتمدون على

---

(١) سيرة ابن هشام ١ - ٢٢٣

(٢) البيان والتبيين ١ - ٢٣٠

(٣) مجمع الامثال للميداني ١ - ٩١

(٤) نفس المصدر ١ - ٢٢٣

(٥) نفس المصدر ٢ - ٥٤

(٦) اغاني ساسي ١١ - ١٥٥

(٧) سيرة ابن هشام ١ - ٢٢١

السجع في كهانتهم ، وايضاً فقد جاء في الحديث النبوي ان النبي ﷺ قضى على رجل في جنين بدية ، فقال الرجل : يا رسول الله أأدى من لا شرب ولا اكل ، ولا صاح فاستهل ، اليس مثل ذلك يطل ؟ فانكر النبي عليه السلام هذا الاسلوب على الرجل[1] وقال له : أسجعا كسجع الكهان[2] ؟ وفي رواية انه قال : انما هذا من اخوان الكهان[3] . وما من شك في ان هذا الحديث يدل اكبر الدلالة على أن الكهان كانوا يستخدمون السجع في كهانتهم .

ويقول الجاحظ : « كان حازى (كاهن) جهينة وشق وسطيح وعزى سلمة واشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع » ثم يروي من سجع عزى سلمة قوله[4] : « والارض والسماء ، والعقاب والصقعاء واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بني العشراء ، للمجد والسناء »[5] .

---

(١) يطل لا يطالب بدمه ، وانظر البيان والتبيين - ١٩٤ وصحيح مسلم طبع الاستانة ٥ - ١١١

(٢) اعجاز القرآن للباقلاني طبع مطبعة الاسلام ص ٣٢

(٣) موطأ مالك طبع هجر بمصر ٢ - ١٩٢

(٤) البيان والتبيين ١ - ١٩٥

(٥) الصقعاء : الشمس . بقعاء : ماء . بنو العشراء : جماعة من فزارة السناء : الرفعة .

وإذا صحت هذه الكلمة لعزى سلمة فإنها ترينا أن الكهان كانوا يعتمدون في كهانتهم على السجع كما كانوا يعتمدون على مثل هذه الاقسام بالارض والسماء والعقاب، والصقعاء ، وايضاً فانهم كانوا يعتمدون على الاغراب في الفاظهم . وهذه هي السمات العامة التي يمكن ان نستنبطها من خلال النصوص الكثيرة التي رويت من سجعهم ، ونحن نرى هذه السمات واضحة في هذه القطعة الصغيرة التي رواها الجاحظ لعزى سلمة ، وهي سمات طبيعيه اذ كانوا يميلون الى الابهام في احاديثهم وخطابتهم وكان لا بد لهذا الابهام ان يعتمدوا على ما يصنعون من الاقسام واللفظ الغريب ليتيح لهم ذلك مقدارا من الرمز والوهم في اساليبهم . واكبر الظن انهم كانوا يبالغون في ذلك حتى تنبهم معانيهم ، فيكثر فيها الفهم ويكثر الاحتمال والتأويل . ونحن لا نتجاوز الواقع اذا ذهبنا الى ان الكهان كانوا يبنون سجعهم في كثير من جوانبه على الرمز ، فان كهانتهم كانت تقتضي هي ان يختاروا الفاظا موهمة توعز بما يريدون دون ان تفصح – في كثير من احوالها – عن شيء مفهوم . ومهما يكن فان حرفة الكهانة في هذا العصر اثمرت ضربا طريفاً من الخطابة كان يتكىء على السجع والتوقيع كما كان يتكىء على الاقسام واللفظ

الغريب .

واكبر الظن ان فيما قدمنا من حديث عن سجع الكهان وخطابة الجاهليين وما كان من امثالهم ما يدل دلالة صريحة على ان ما سلم لنا من بقايا نثرهم انمـــا هو بقايا متناثرة من صناعة محكمة دقيقة كانت تستنفد من اصحابها آمادا واسعة من التعب والجهـد والنشاط . اذن كان للعرب في اواخر العصر الجاهلي اسلوب مسجع . ونحن اذ نشك في صحة الرواية ، نرجـع الى القرآن الكريم لنتتبـع اخبار الكهان في اكثر من آية كقول القرآن رداً على المشركين الذين أتهموا النبي تارة بكاهن ، وطوراً بشاعر وآخر بساحر : « أم يقـــولون شاعر نتربص به ريب المنون » [1] .

« فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » [2]

« وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون » [3]

« ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » [4]

ولقد حسب العرب ، يا صاحبي ، القرآن ضرباً من سجع الكهان لمـــا لمسوه من تقارب في الاسلوب بينه وبين السجع

---

(١) سورة الطور . آية ٣٠ . (٢) سورة الطور آية ٢٩ . (٣) سورة الحاقة . آية ٤١ . (٤) سورة الحاقة آية ٤٢ .

وخاصة في السور الاولى منها . ويقال إن النبي حرم السجع لان الكهان كانوا يتكهنون ويحكون كقولهم « الارض والسماء والعقاب والصقعاء ، واقعة ببقعاء » . « لقد نفر المجد بين العشراء للمجد والسناء » . فلما زالت العلة ، بطل التحريم

خذ مثلا ، يا صاحبي ، حديث الكاهنة زبراء مع بني رئام .

قالت تحذرهم من الاعداء « يا ثمر الاكباد ، وانداد الاولاد وشجا الحساد ! هذه زبراء تخبركم عن انباء قبل انحسار الظلماء بالمؤيد الشنعاء ، واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق ، والنجم الطارق والمزن الوادق أن شجر الوادي ليئدوا ختلا ويحرق انيابا عصلا ، وان صخر الطود لينذر ثكلا لا تجدون عنه معلا ... الخ . » ولو قارنا القسم الثاني من سجع الكاهنة بسورة الشمس : « والشمس وضحيها ، والقمر اذا تلاها والنهار اذا جليها ، والليل اذا يغشيها » لوجدنا شبهاً واضحاً في الاسلوب القسمي وفي تقطيع الجمل ، وتسجيعها ؛ ومثل ذلك ما نقل عن لسان الخزاعي الكاهن عن الحكم بين هاشم وامية ، ومنه : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، ولقد سبق هاشم امية الى المآثر ، اولا منه وآخر »

فاذا قابلت القسم والسجع في هـــذا الحديث بسورة الفجر : والفجر [١] وليال عشر [٢] والشفع والوتر [٣] والليل اذا يسر [٤] ، هل في ذلك قسم لذي حجر [٥] » . وما يصدق على سورة الفجر يصدق على سورتي التـين والمدثر ، وسواهما من مثيلاتها من السور القرآنية ونحن لا نـتردد ، يا صاحبي ، في اثبات صحة السجع القديم ، ولا ننكر الوضع فيه ، ومن المعروف أن السجع كان شائعا في الحلقات الدينية والاخلاقيه ولم يخرج القرآن عن الاسلوب الديني في تلك الايام .

فالسجع فيه كثير ، وقـــد ظل السجع سائداً في الخطب والوعظ الديني في صدر الاسلام وعصر بني العباس يوم ان طغى سيل الاسلوب الديني عـلى اسلوب الخطباء ، ولم يتحرر الكتاب منه الا منذ عهد قريب .

---

(١) سورة الفجر ... آية ١ .
(٢) » » الاية الثانية .
(٣) » » » الثالثه .
(٤) » » » الرابعة .
(٥) » » » الخامسة .

الفصل السادس

الخطابة في عهد الانشاد

قال لي صاحبي : « ما لك لا تحدثنا عن الخطابة في عهد الانشاد ، وتبدي لنا رأيك في هذا الموضوع الخطير ، وانت تعلم ان الدكتور طه حسين انكر ما وردنا من خطب العصر الجاهلي ، وعزاها الى العصور الاسلامية قلت : [كان للخطابة شأن عظيم في العصر الجاهلي اذ كان الخطيب لا يقل في منزلته عن الشاعر ، بل يقول ابو عمرو بن العلاء ان الخطيب في الجاهلية كان فوق الشاعر [1] ، ولا غرابة فيما يقوله ؛ لأن الخطيب كان لسان القبيلة فهو الذي يتكلم باسمها في المواسم والمحافل العظام ، وربما كان من اسباب تفوقه على الشاعر انه كان يدعو الى السلم وان تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة اوزارها ، بينما كان الشاعر يدعو الى الاخذ بالثأر واشعال نار الحرب] ، ولعل ذلك ما جعل ربيعة بن مقروم الضبي يقول [2] :

---

(١) البيان والتبيين ١ - ١٧٠

(٢) اغاني طبع الساسي ١٩ - ٩٣

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة

خطباؤنا بين العشيرة يفصل

ويقول ابو زبيد الطائي[1] :

وخطيب اذا تمعرت الأو

جه يوماً في مأقط مشهود

والمأقط : موضع القتال . ومن يرجع الى مدائح الشعراء ومراثيهم لسادة القبائل يجدهم كما يصفونهم بالشجاعة يصفونهم بالخطابة ، يقول الاعشى في مديح قوم[2] :

فيهم الخصب والسماحة والنجدة

جمعاً والخاطب الصلاق

والصلاق : شديد الصوت . ويقول اوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة[3]

أبا دليجة من يكفي العشيرة اذ

أسوا من الخطب في نار وبلبال

ام من يكون خطيب قوم اذا حفلوا

---

(١) البيان والتبيين ١ - ١٣٠

(٢) نفس المصدر ١ - ٩٦

(٣) نقد الشعر لقدامة طبع الجوائب ص ٣٥ وانظر ديوان اوس بن حجر طبع فينا ص ٢٢ .

لدى الملوك ذوى ايد وافضال

الهفا على حسن آلائه

على جانب الحمى والحارب

ويقول اوس فيه ايضاً [1]

ورقبته جشمان [2] الملو

ك بين السرادق والحاجب

ويكفى المقالة اهل الدحا

ل [3] غير مصيب ولا غائب

ورقبته : انتظاره اذن الملوك ، وقد جعله بين السرادق والحاجب ليدل على مكانته من الملك . ويظهر انهم كانوا يخطبون كثيراً في وفادتهم على الملوك والامراء ، ونحن نعرف قصة وفد تميم الى محمد صلى الله عليه وسلم اذ قام خطيباً بين يديه عطارد بن حاجب بن زرارة [4] وقد افتخر الفرزدق بذلك اذ يقول [5] :

---

(١) البيان والتبيين ١ - ١٣٤

(٢) في الاصل حتمات

(٣) الدحال : الخبث والدهاء في حذق وفي الاصل « الرجال »

(٤) تاريخ الطبري : القسم الاول ص ١٧١١ واغاني دار الكتب ٤-١٤٦

(٥) البيان والتبيين ١ - ٢١٣

ومنا خطيب لا يعاب وحامل

اعز اذا التفت عليـــه المجامع

وكانوا يخطبون كثيراً ايضـــاً في حروبهم وفي مجامعهم واسواقهم وفي مغـــامراتهم ومنافراتهم . وفي كل مكان من الجزيرة نجد خطباء منثورين ، في مكة وفي المدينة وفيما وراءهما من قبائل البادية . اما مكة فقد اشتهر فيها عتبة بن ربيعة ، وهو خطيب قريش يوم بدر [١] ومن خطبائهـا ايضاً سهيل بن عمرو الاعلم ، وهو الذي قال فيه عمر للنبي ﷺ : انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً ، فقال رسول الله : لا امثل فيمثل الله بي وان كنت نبياً ، دعه يا عمر ، فعسى ان يقوم مقاماً نحمده [٢] ولقريش ايضاً خطباء كان ينفر اليهم العرب امثال هاشم وأمية [٣] . وكذلك نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، واليه نفر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن امية [٤]

---

(١) اغاني طبع دار الكتب ٤ - ١٨٧

(٢) البيان والتبيين ١ - ٢٠٧

(٣) شرح النقائض لابي عبيدة طبعة بيڤن ١ - ٢٢٤

(٤) تاريخ الطبري : القسم الاول من ١٠٩١

واما المدينة فقد ذكر الجاحظ من خطبائها قيس بن الشماس وثابت بن قيس بن الشماس خطيب النبي ﷺ وسعد بن الربيع وهو الذي اعترضت ابنته النبي صلوات الله عليه ، فقال لها : من انت ؟ فقالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع[1]

واذا تركنا مكة والمدينة الى القبائل المنبطحة في البادية وجدنا ممن اشتهروا فيها بالخطابة ابا عمار الطائي وهو خطيب مذحج كلها[2] ، وهانىء بن قبيعة خطيب شيبان يوم ذي قار[3] وزهير بن جنـــاب خطيب كلب وقضاعة[4] وربيعة بن حذار خطيب بني أسد[5] واليه احتكم الزبرقان بن بدر والخبل السعدي وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الاهتم ايهم اشعر[6] . ومن الخطباء المشهورين ايضاً في القبائل عامر ابن الظرب[7] ولبيد بن ربيعة

---

(١) البيان والتبيين ١ - ٢٣٠
(٢) البيان والتبيين ١ - ٢٢٥
(٣) اغاني طبع الساسي ٢٠-١٣٧
(٤) نفس المصدر ٢١ - ٦٥
(٥) نفس المصدر ١٠ - ٦٢
(٦) نفس المصدر ١٢ - ٤٠ وكذلك ٢١ - ١١٣
(٧) اغاني طبع دار الكتب ٣ - ٩٠ والبيان والتبيين ١ - ٢٣٣

العامري الذي يقول[1] :

واحلف قسا ليتني ولو انني
واعي على لقمان حكم التدبر

ويقول ايضاً[2] :

والبيض يجتاب الخروق على الوجى
خطيباً اذا التف المجامع فيصلا

ومن خطباء القبائل هرم بن قطبة الفزاري [3] وهو صاحب المنافرة المعروفة بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل ، وقد رآه عمر يوماً في المسجد فقال له : أرأيت لو تنافرا اليك — يعني علقمة وعامراً — أيهما كنت تنفر ، فقال : يا امير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لاعدتها جذعة ، فقال عمر : لهذا العقل تحاكمت اليك العرب [4] . ومن الخطباء البلغاء قس بن ساعدة خطيب اياد[5] وعمر بن كلثوم خطيب تغلب[6] وهيذان بن شيخ الذي قال فيه

(١) البيان والتبيين ١ - ١٤٠
(٢) البيان والتبيين ٢ - ١٣٢
(٣) نفس المصدر ١ - ٢٣٣
(٤) البيان والتبيين ١ - ١٦٨
(٥) نفس المصدر ١ -٥١ ، ١ - ٢٠٣
(٦) نفس المصدر ٢ - ١١١

الرسول : رب خطيب بن عبس[١] . ومن خطباء غطفان العشراء بن جابر وخويلد بن عمرو خطيب يوم الفجار[٢] وقيس بن خارجة بن سنان ويقال انـه خطب في حرب داحس والغبراء يوماً الى الليل[٣] . ومن خطباء القبائل ايضاً حنظلة بن ضرار خطيب بني ضبة ، وقد طال عمره حتى ادرك يوم الجمل[٤] . ولم تشتهر قبيلة بالخطابة اشتهار تميم ، ومن خطبائهـا المفوهين ضمرة بن ضمرة[٥] واكثم بن صيفي[٦] وقيس بن عاصم[٧] وعطـارد بن حاجب بن زرارة خطيب وفد تميم بين يدي الرسول ، وعمرو بن الاهتم المنقري « ولم يكن في بادية العرب في زمانـه اخطب منه[٨] » ؛ وما من ريب في ان هذه الكثرة من الخطباء تدل على ما كانت عليه الخطابة حينئذ من رقي وازدهار .

---

(١) نفس المصدر ١ - ٨٥

(٢) البيان والتبيين ١ - ٢٢٦

(٣) نفس المصدر ١ - ٢٢٩

(٤) نفس المصدر ١ - ٢٢٠

(٥) جمهرة الامثال لابي هلال ١ - ١٦٨

(٦) اغاني طبع الساسي ٥ - ١ ، ٧

(٧) البيان والتبيين ١ - ٥٧

(٨) البيان والتبيين ١ - ٢٢٨

وقد كان لعرب الجاهلية سنن خاصة في خطابتهم ، منها انهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار[1] وكان من عاداتهم ان يشيروا اثنـــاء خطابتهم بالعنا والعصي والقضبان والقسي[2] وفي ذلك يقول لبيد[3] :

ما ان اهـــاب اذا السرادق عمه

قرع القسى ، وارعش الرعـديد

وكانوا يمدحون جهارة الصوت وفخامته ويعيبون ضيقه ودقته وان يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة[4] او ان يعتريه شيء من الحصر . يقول ابو العيال الهذلي[5] :

ولا حصـــير بخطبته

اذا ما عزت الخطب

وكانوا يكرهون ان يمس الخطيب ذقنه وسباله . يقول معن

---

(١) نفس المصدر ٣ - ٣

(٢) نفس المصدر ١ - ٢٣٧

(٣) نفس المصدر ٣ - ٤

(٤) نفس المصدر ١ - ١٣٠

(٥) نفس المصدر ١ - ٢١

ابن اوس المزني في بعض هجائه[1] :

اذا اجتمع القبائل جئت ردفاً
امـــام الماسحين لك السبالا
فلا تعطي عصـا الخطباء فيهم
وقد تكفى المقـــادة والمقالا

واذا كانوا قد عابوا ذلك في الخطيب فانهم مدحوا فيه – على نحو ما يلاحظ الجاحظ في بيانه – شدة المعارضة وظهور الحجة وثبات الجنان و كثرة الريق والعلو على الخصوم في مضايق الكلام ومآزق الخصام[2] .

قال صاحبي وما هذا الانشاد الذي تحدثنـا عنه ؟ قلت : « شاءت نواميس الطبيعـة ان يكون تطور الامم والجماعات رهن بتطور الافراد ، وشاءت نواميس الطبيعة ايضاً ان يكون نمو الشعور والمخيلة في طفولية الامم والجماعات والافراد اسرع من نمو سائر القوى العقلية والنفسية . و كان ان نتج عن هذا كله ان تقدمت الآثار الشعرية على الآثار النثرية وسبقتها الى الظهور بمعناها الواسع الصحيح .

---

(١) البيان والتبيين ١ - ٢٣٧
(٢) نفس المصدر ١ - ١٣٠

والان تعال معي يا صاحبي قبل ان نتوغل في البحث لنحدد ما نسميه بالاثار الشعرية وبالآثار النثرية .

اعتاد مؤرخوا الأداب في عصرنا ، عصر الادب الكتابي ، ان يعرضوا مولدات الفكر البشري ، على المقاييس والموازين الادبية الحاضرة فقسموا التآليف قسمين متباينين ، وسموا الاول منهما « شعراً » والثاني « نثراً » . واصطلحوا لكل قسم منهما قواعد معينة ، وطرقاً محددة ، تفصله عن القسم الآخر ، وتبقيه الى ما شاء الله ضمن تحديدهم ومصطلحاتهم المتفق عليها . وما هذا الا اننا نستطيع في عصرنا هذا ان نصون تراثنا الادبي من الضياع بفضل الكتابة التي تقوى على كر الايام ومضي الزمن وتقلبات الدهر ، فتحفظ الافكار المجردة عن الحس والخيال ، وابعد التعابير عن الرنة والايقاع .

اما في الاعصر القديمة ، في عهد بداوة الشعب ، في عهد الانشاد عهد الادب الشفهي الاصيل ، قبل ان تعرف الامم الكتابة وتتخذها واسطة لتدوين الآثار الادبية والمولدات الفكرية ، اذ لم يكن من الممكن حفظ نبات افكار المفكر ومنتجات الاديب من الضياع وسيرورتها بين قومه الا اذا صادفت من قلوبهم وتراً حساساً ، وعرضت امام انظارهم صوراً

خلابة ، ونالت من مسامعهم مواقع موسيقية ، فلم يكن من مندوحة للمؤلف والاديب والمفكر عن الالتجاء الى هذه الطرق : العاطفة والخيال ، والموسيقى . وتكون هذه العناصر الاسس الرئيسية لما ندعوه في - عصرنا (عصر الادب الكتابي) شعراً.

فاذا تناولنا اليوم تلك الآثار الادبية القديمة وتعرضنا اليها بشيء من البحث والنقد والتحليل والغربلة ، دونما مراعاة للزمن الذي قيلت فيه ، وقسناها بموازيننا المادية الحاضرة ، فاطلقنا على ما وافق بحورنا منها « شعراً » ، وما خالفها « نثراً » ، وفي رأينا ان فعلنا ذلك نكون قد شططنا في فهم مدلول الادب بنسبتنا نظريات متأخرة استقامت لنا في عصر الادب الكتابي الى قوم عاشوا في عهد الأنشاد ، (عصر الادب الشفهي الاصيل) فلم يتسنى لهم معرفة الفرق بين الشعر والنثر في آثارهم الفنية كالفرق المادي المحدد الذي نعرفه اليوم ؟

ولو انعمنا النظر في اناشيد هوميروس الملحمية لتحققنا انه لم يكن شاعراً ولا ناثراً ، وكذلك لم يكن داود النبي شاعراً ولا ناثراً في مزاميره ، ولم يكن سليمان الحكيم ايضاً شاعراً ولا ناثراً في اناشيده ، وكذلك لم يكن سائر انبياء اسرائيل شعراء ولا ناثرين في نبوآتهم ، ولم يكن « شعراء » الجاهلية

وخطباؤها و كهانها، شعراء ولا ناثرين في «قصائدهم» وخطبهم - واسجاعهم . اجـل لم يكن جميع هؤلاء شعراء ولا ناثرين - طبقاً للمصطلحات الحاضرة - وذلك لأنهم لم يكونوا ليشعروا بالفرق بين الشعر والنثر ... وانما كان لهم نوع واحـد من الانشاء الفني الادبي ، يؤثر في السامعين فيحملهم على الانتباه ، فالاصغاء ، فالتأثر فالحفظ الى مـا امكن الحفظ ، الا وهو « الانشاد » نعم كان فنهم « انشاداً » و كانوا « منشدين » .

اننا نتحدث عن « الانشاد » ولكن مـا هذا « الانشاد » الذي نتحدث عنه ؟

انها لفظة تطلق على المجموعات الادبية التي قيلت في عصر الانشاد الشفهي . وقد اصاب الاستاذ فؤاد افرام البستاني في تعريفه للفظة « الانشاد » اذ قال : (اننـا نستعمل لفظة « الانشاد » للدلالة على هذا النـوع من الانشاء الشفهي او من التعبير الفني الذي كان يستند فيه الخطيب او « المنشد » الى عناصر حسية وخيالية وموسيقية تقره في الاذهان ، معتمداً اولا على ذاكرته ثم على تأثر الحاضرين . هذا من جهة المعنى . اما من جهة المبنى ، او الاخراج المادي ، فقـد كان يستند « المنشد » الى اسهل الاساليب البديعية علوقاً بالآذهان واقربها الى الانغام الشعبية

العامة ، وهي التضاد ، والطباق والمقابلة بين التعابير والمقاطع ، والسجع خصوصاً . فان السجعات كانت بمثابة محطات انشائية يقف عندها المنشد والسامع ، فيستريحان . ثم يتابعان طريقهما: الاول في الالقاء ، والثاني في السماع والحفظ . وهناك ايضاً طريقة مهمـــة لاقرار « الانشاد » وهي تلك الترديدات والمراجعات ، والقوالب التعبيرية وما تجره احيانا من انواع التوقف الاستفهامي . وكلها اساليب لا يزال يلجأ اليها خطباء العصر ، ولا سيما المرتجلون منهم[1] .)

هذا هو « الانشاد » ونعني بـه الفن الانشائي الذي يظهر عند الامم في بداوتها ، وفي عهـــد ادبها الشفهي فيكون فنها الادبي الرفيع ، ذلك الفن الذي يكون بمثابة الصلة بين «الشعر» و« النثر » . ولا نغالي اذا قلنا وجزمنا في القول ان ذلك الفن هو الاصل الذي يتفرع عنه « الشعر » و « النثر » ولا يلبثان حتى يستقلا كل الاستقلال في عهد الادب الكتابي .

والآن يتحتم علينا يا صاحبي ، قبل الشروع في الكلام على الخطابة في عهد الانشاد أن نجيب على هذا السؤال لنحل مشكلة

---

(١) راجع الشعر الجاهلي في الروائع ، فؤاد افرام البستاني ص ١٢ طبعة ثالثة بيروت ١٩٤٩

معقدة اختلفت فيهـــا النظريات وتضاربت حولها الآراء عند الباحثين قديماً وحديثاً . واما السؤال الذي نحن بصدد الاجابة عليه الآن فهو : اي هـذين النوعين من الادب يسبق الأخر عادة الى الظهور في الامم والشعوب : الشعر ام النثر ؟ واي هذين الفنين من فنون النثر ، يكون اسبق الى الظهور عادة في الامم الكتابة ام الخطابة ؟

ولا شك ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب منـا ان نستعرض حياة الامة العربية ، التي كان شأنها في نشأتها كشأن سائر الامم . نشأت في البادية وعاشت حياة بدوية فطرية ، فكانت حديثة العهد بالوجود ، وحديثة العهد بالتكلم ، وكان كل فرد منها بطبيعة الحال منصرفاً الى قضاء حاجاته الساذجة ، لا يحتاج الا الى نوع من التفاهم البدائي البسيط . فما هي اذن اداة هذا التفاهم عند الامة العربية ، وعند كل امة ؟ لا شك ان تلك الاداة لغة التخاطب . وليست لغة التخاطب في هـــذا الطور لغة الخطابة بمعناها الواسع الفني ؛ وليست شعراً ولا كتابة ، وانما هي نثر غير فني ، وبحكم سنة التطور تنتقل هذه الجماعات من حياتها الساذجة الى حياة معقدة اكثر فاكثر ، وتدخل طوراً جديداً من حياتهـــا ، مخالفاً لحياتها الأولى ،

فتتغلب في هذا الطور ، العاطفة على العقل الذي لم يكن قد نضج بعد ، وتبدأ حياة شعورية جديدة ، وبهذا الانتقال ، يا صاحبي ، تكون هذه الجماعات فرغت من التعبير عن حاجاتها الحيوية ، والفت نفسها مضطرة الى ان يتصل بعضها ببعض وبسواها . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاتصال ان تفجرت في قلوبهم العواطف المختلفة من مودة وخصومه ، وتعظيم وتحقير ، وميل وصدود ، فبم يعبر القوم اذن عن هذه العواطف ، يا صاحبي ؟ ولما يخرجوا بعد من طور الامية الى طور الكتابة والقراءة ؟ لا شك انهم يعبرون عن خلجات نفوسهم وخواطرهم بالشعر وفي هذا الطور لا بد من وقوع خلافات ومنازعات بين افراد الجماعة الواحدة ، وبين جماعة وجماعة . وقد تؤدي هذه الخلافات والمنازعات الى حرب ضروس ؛ وهنا يمثل الشعر دوراً هاماً في اثارة العواطف وتحريك النفوس ، ولكننا نتساءل ، هل يكفي الشعر وحده لحل منازعات القوم ؟ وبيان ذلك ، اعتماد الخطيب على القرينة ، وعلى ذكاء السامع . فيحذف الجمل التي قد تنوب عنها اشاراته وحركاته وملامحه ونبرات صوته . ولا يستطيع ان يحذف الكاتب ما يحذفه الخطيب من الجمل ، لان الكاتب لا يعتمد على القرائن التي يعتمد عليها الخطيب .

ولانه يكتب للغائب عنه . وربما كان الغائب عنه خالي الذهن من الموقف الذي يعبر عنه الكاتب ، او من الحالة التي يصدر عنها في الكتابة . واما شأن الخطيب ، فشأن المحدث ، يعتمد على الاشارة والخطاب لانها اقرب الى طبيعته . والشيء الذي يشير اليه الخطيب يكون غالباً قريباًمنه ، ومن سامعه . واما مبعث مخالفة الخطيب في ارجاع الضمائر او عدم عنايته احياناً بهذا الارجاع ؛ كأن يقول الخطيب « انهم » وهو لم يسبق الضمير هنا بجماعة الذكور ؛ أو كأن يقول : « انها » وهو يقصد ان تعود على شيء ربما لم يكن يلائم الضمير . فنرى ان هذا مبعث العبث بالضمائر في لغة الخطابة . [ان الخطيب يعول على ذكاء السامعين وانه يعول ، ايضاً ، على قرينة يفهمها هو ، ويفهمها سامعوه . وقبل ان نختم الكلام في هذا الموضوع ، يجدر بنا ان نشير الى ظاهرة أخرى ، لا تقل اهمية عن سابقتها وهي ان كل فن من هذه الفنون ، يكون باديء ذي بدء ، متأثراً بخصائص الفن الذي سبقه الى الوجود الفعلي . ولا بد من ان تكون الخطابة في باديء امرها كثيرة الاسجاع ، قصيرة الجمل ، تكاد كل جملة منها ان تكون معنى مستقلا بذاته عن الاخر : فخصائص الخطابة اذن ، خصائص الشعر من

وجهة عامة . ولا شك ان هـذه الخصائص صفة الوحدات او الابيات التي ينقسم اليها الشعر من وجهة خاصة وتبقى الخطابة مقيدة بلغة الشعر حتى يتقدم بها العهد ، وتتحرر شيئاً فشيئاً عن هذه القيود ، وتصبح لها مميزاتها ، التي تستقل بها عن الشعر جملة واحدة . وآية ذلك ، يا صاحبي ان لغة الخطابة في عهد الانشاد كانت تمتاز بالجمل القصيرة والاسجاع الكثير او بالحكم التي وضع بعضها الى جانب بعض كما توضع الابيات من الشعر سواء بسواء ولا ريب ان لغة الكتابة تشارك لغةالخطابة في بعض خصائصها كالايجاز ، والحذف ، والمخالفـــة في ارجاع الضمائر احياناً . وهذا ممايجعل الكتابة غامضة ملتوية ، كثيرة التعقيد والدوران وتبقى الكتابه كذلك حتى تتخلص رويداً رويداً من هـذه القيود ، والاوضاع ، فتصل الى مثلها الاعلى ، وتظفر بحريتها وخصائصها ، التي تميزها عن خصائص الخطابة بنوع خاص .

بقي علينا ان نورد لك نماذج من خطب عهد الانشاد ، وهي قطع من الوعظ ، يغلب عليها الايجاز ، وتكثر فيها الجمل القصيرة . ومواطن السجع فيهـــا كثيرة ، متينة التركيب ، حسنة الرصف ، سهلة العبارة تكاد تخلو خلواً تاماً من غريب الالفاظ ، ووحشي الكلام . ولعلك تذكر قس بن ساعدة

الايادي امام الخطباء في عهد الانشاد ، واجلهم قدراً ؛ وهو مسيحي من نصارى نجران . ويقال انه اول من صعد المنبر ، وقال : « اما بعد » . وكان زاهداً في الدنيا يضرب المثل بفصاحته ويروى انه ادرك النبي وسمع منه خطبته المشهورة التي انشدها في سوق عكاظ ، وهي خطبة قصيرة الجمل كثيرة الاسجاع . اذا استثنينا آخرها ، فهي تفيض بالسهولة واللين ، واليك بعضها : « ايها الناس . اسمعوا وعوا . واذا سمعتم شيئاً فانتفعوا ،انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ان في السماء لخبراً ، وان في الارض لعبراً . ليل داج وسماء ذات ابراج ، وارض ذات فجاج ، وبحار ذات امواج ، ما لي ارى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ ارضوا المقام فاقاموا ام تركوا هناك فناموا ؟ ؟ تباً لارباب الغفلة والامم الخالية والقرون الماضية !يا معشر اياد ، اين الاباء والاجداد ، واين المريض والعواد ،واين الفراعنة الشداد ؟ اين من بنى وشيد ، وزخرف ونجد ؟اين من بغى وطغى ، وجمع فاوعى وقال انا ربكم الاعلى ؟ الم يكونوا اكثر منكم اموالا ، واطول آجالا ؟ طحنهم الثرى بكلكله[1] ، ومزقهم بطوله[2] فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم

(١) كلكله : بصدره

(٢) بطوله : بقوته

خاوية عمرتها الذئاب العاوية كلا ، هو الله الواحد المعبود ، ليس بوالد ولا مولود .

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر ، لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر ، ورأيت قومي نحوها يمضي الاصاغر والاكابر ، لا يرجع الماضي الي ، ولا من الباقين غابر[1] ايقنت اني لا محالة ، حيث صار القوم صائر . »

ولعلك تذكر ايضاً اكثم بن صيفي ، وهو احد خطباء عهد الانشاد ، وزعيم الخطباء الذين اوفدهم النعمان ملك الحيرة الى كسرى ، ويروى انه ادرك الاسلام . وكان يعرف بقوة الحجة ، وكثرة الحكم ، والامثال التي تمتاز بالشدة ، والايجاز ، واليك شيئاً من اقواله :

« ان افضل الاشياء اعاليها . واعلى الرجال ملوكها . وافضل الملوك اعمها نفعاً وخير الازمنة اخصبها . وافضل الخطباء اصدقها .

الصدق منجاة . والكذب مهواة . والشر لجاجه ، والحزم مركب صعب . والعجز مركب وطيء . اصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعي . شر البلاد بلاد لا امير فيها ، وشر الملوك من خانه البريء .. » .

---

(١) غابر : باق

الباب الثاني

النثر في صدر الاسلام

الفصل الاول

القرآن

قال صاحبي : حدثنا عن النثر في صدر الاسلام ، وأود لو تبدأ حديثك عن هذه الحقبة ، بذلك الحدث العظيم الذي ظهر عند منبثق الاسلام ؛ واعني به القرآن . قلت : « يقع القرآن يا صاحبي في مائة وثلاث‌عشرة سورة ما عدا الفاتحة . وهو اول كتاب عربي ، جمع من الرقاع ومن صدور الحفاظ في عهد ابي بكر ، ثم سلم لعمر بن الخطاب ؛ وبعده اودع عند حفصة ابنته ثم سلم الى عثمان بن عفان ، حيث ضبط ، ونسخ ووزع على الامصار . واما نزوله يا صاحبي ، فقد كان آية آية ، حسب الحاجة ومقتضيات الحال ، في ثلاث وعشرين سنة . وكان اول ما نزل منه الآيه (١) : « إقرأ بسم ربك الذي خلق[١] . خلق

---

(١) سورة العلق ، الآيات الثلاث الاولى

الانسان من علق[1] . إقرأ وربك الاكرم . » وآخر ما نزل منه الآية (٢) : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » ويقسم المؤرخون سور القرآن الى قسمين : قسم مكي ، وقسم مدني . فالمكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها . والمكي ما نزل بمكة ، والمدني ما نزل بالمدينة ؛ والمكي ما جاء خطاباً لاهل مكة . والمدني ما جاء خطاباً لأهل المدينة . ولا ريب ان نزول القرآن كان اعظم حادثة في تاريخ الاداب العربية . وانه يعد انموذجاً للادب العربي ولو ان الشعور الديني في العالم الاسلامي يتيح للباحثين تناوله بالبحث من الناحية الفنية ، لاستخرجوا منه تحفاً فنية ادبية رائعة . ويحتم علينا ، يا صاحبي ، الاجابة على سؤال تضاربت الآراء في الاجابة عليه « أشعر القرآن ام نثر ؟ » وقد سبق للدكتور طه حسين ان قال : « القرآن ليس شعراً ولا نثراً ، ولكنه قرآن » ولعلنا لا نقسو على الدكتور طه حسين اذا قلنا إن في رأيه مراعاة للشعور الديني . وفي هذا مخالفة لقواعد النقد العلمي الحديث الذي يتجرد من كل عاطفة ، قومية كانت ام دينية . ونحن نشاطر الدكتور زكي مبارك في مخالفته لرأي

(١) سورة المائدة ٠ آية ٢

الدكتور طه حسين . لأننا نرى ان القرآن نثر ، واسلوبه يمثل الاساليب النثرية في تلك الايام . ولو انعمنا النظر في القرآن ، ودققنا في اسلوبه ، لرأيناه لم يخرج في الفاظه واساليبه عن القصص الديني واسجاع الكهان التي كانت شائعة في الحلقات الدينية قبيل ظهور الدعوة الاسلامية. اضف الى ذلك كثرة السجع والموازنة فيه ولم يكن القرآن جـديداً على العرب الا في دعوته الى التوحيد ومبادئه الروحية ، وسمو بيانه ، وقوة اعجازه . ولو لم يألف العرب اساليب القرآن ، والفاظاً مثل الفاظه ، ولغة مثل لغته ، لما استطاعوا ان يفهموه ولا أن يجادلوا فيـه مدة غير يسيرة من الزمن . وقد ذكر الباقلاني ، يا صاحبي ، في كتابه « اعجـاز القرآن » أن القرآن ليس من جنس كلام العرب ، وانكر ان يكون فيه سجع ، مع ان السجع فيه كثير ، الا انه لا يلتزمه التزام مقامـات بديع الزمان والحريري ، وما شاكلها . اضف الى ذلك ان القرآن ، يصف نفسه بلسان عربي مبين .

لقد فتح القرآن بحق صفحة جديدة في تاريخ النثر العربي ، اذ سطرت في اعلى هـذه الصفحة آي الذكر الحكيم التي كان يتلوها محمد ﷺ ، فيقول الوليد بن المغيرة أحـد خصومه :

« والله قد سمعت من محمد كلاما ، ما هو من كلام الانس والجن وأن له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق[1] . ويلاحظ الوليد ملاحظة خاطئة وهي ان القرآن لا يماثل كلام الانس ولا كلام الجن الذي كان يجري على السنة كهانهم ، بل هو طراز وحده ، وانه لطراز يجعلنا لا نؤمن بما آمن به الباقلاني وغيره من علماء العصر العباسي ، اذ ذهبوا الى أن القرآن ليس شعراً وليس نثراً من مألوف نثر العرب ، بل هو اسلوب خاص[2] يقف وحده ، وله بلاغته ، بل اعجازه الذي انقطعت دونه آمـــال العرب في محاكاته او الاتيان بشيء من مثاله .

وهذا ما حمل الدكتور شوقي ضيف ان يقول في كتابه « الفن ومذاهبه في النثر العربي » . « ولما كان القرآن الكريم تفرد له الابحاث الخاصة وكان يعتبر من اسلوب فريد لا شعر

---

(١) انظر تفسير الطبري والزمخشري في سورة المدثر وانظر السيرة لابن هشام ١ - ٢٨٩

(٢) اعجاز القرآن للباقلاني طبع مطبعة الاسلام ص ٣١ . وانظر ايضا مقدمة ابن خلدون طبع المطبعة البهية ص ٤١٧ .

(٣) شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٧ طبع مطبعة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م

ولا نثر ، لذلك لن نعرض له في هذا البحث » .

ونحن نؤمن ان القرآن كلام الله وانه تنزيل من لدن حكيم عليم ، ولا ننكر على القرآن قوة اعجازه ، ولكننا نرى ان الباقلاني ومن ذهبوا مذهبه لم يصيبوا كبد الحقيقة ولعلهم تعاموا عنها ارضاء للعواطف الدينيـــة . ولو استعرضنا بعض السور المكية ، لرأينا السجع يغلب عليها ، وتكثر فيها الفقرات القصيرة دون تقيد بالقوافي وكثيراً ما ينتهي بفواصل متقاربة يتوالى فيها اقسام شديدة الوقـــع ، كقوله تعالى : والنازعات نزعاً . والناشطات نشطا . والسابحات سبحاً . فالسابقات سبقاً . فالمدبرات أمرا (١)[١] . » وجمل مصدرة باذا الشرطية كقوله تعالى : اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت . واذا الكواكب انتشرت[٢] » ولو تتبعنـــا آيات سورة المرسلات وسورة الرحمن لرأينا فيهما كثرة الازدواج المسجوع تارة وغير المسجوع تارة ، وللمسنا في السورة الاولى تكرار الآية « ويل يومئذ للمكذبين . » وفي السورة الثانية تكرار الآية فبأي آلاء ربكما تكذبان » كأنهما لازمتان شعريتان . ويسود في القرآن

---

(١) سورة النازعات . الايات الخمس الاولى

(٢) سورة التكوير . الايات الثلاث الاولى

النفس الخطابي . وقد خاطب المشركين ، بقوله : « يا ايها الناس » . وخاطب المؤمنين بقوله : « يا ايها الذين آمنوا » . فهو يندفع في الكلام اندفاعاً خطابيا في بعض السور المدنية ، كما هو الحال في مثيلاتها من السور المكية . واذا قرأنا الايات التالية ، وقارناها بالآيات المكية القديمة ، نشعر اننا انتقلنا من حال الى حال من حيث قوة العبارة ، وانفعال النفس ، لا من حيث التركيب البياني : « ان الدين عند الله الاسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب[1] » . « فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ، ومن اتبعني . وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ، فان اسلموا ، فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد[2] . » « ان الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين[3] » . وفي القرآن يا صاحبي

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٠ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

من ضروب البلاغة ، ودقة الاشارة[1] ، واحتباك العبارة[2] ، وحسن الايقاع (يقصد به وصف الكلام وصفاً متناسب الاجزاء) وروعة الانتقال (وتعني الوثوب من معنى الى اخر او من حال الى حال) ، وجمال التمثيل (ويقصد به ابراز المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه شاهد ، وهو يؤثر في القلوب . « ما لا يوصف ولا يجارى ، وستظل النفوس الى ما شاء الله تشرئب الى تقليده ، والاعناق تتطاول الى معارضته . ونحن اقصر باعا من ان نلم بما في القرآن من ضروب البلاغة ، لانه وحده المصدر الاوحد ، والعامل الباعث لما صنفه العلماء من علوم المعاني والبيان ، والصرف والنحو . هذا بالاضافة الى كتب التفسير والتشريع وسواها ، وقد وضع ارباب البلاغة في بلاغته مصنفات كثيرة ، وقد جاء في « مفتاح السعادة » على من يتعرض لدرس القرآن وتفسيره ان يتعمق في علوم كثيرة من علوم البلاغة : كالمعاني ، والبيان ، والبديع. وهذه العلوم عند العلماء من اعظم دعائم اصول التفسير ،

---

(١) دقة الاشارة : عرض المعنى باقل ما يمكن من الالفاظ او العبارات .

(٢) احتباك العبارة : ومعنى الاحتباك الشدة والاحكام وتحسين اثر الصنعة في الثوب بسد ما بين خيوطه من الفرج واحكامه مع بقاء الحسن والروعة .

والركن الضروري الذي يعتمد عليه المفسر ليتسنى له ادراك الاعجاز في القرآن ، ولا يتوفر له ذلك الا اذا اجتمعت لديه هذه العلوم . وقال السكاكي في حق المعاني والبيان : « فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير ، وهو فيهما راجل » وقد افرد العلماء لبدائع القرآن مصنفات كثيرة ، وعددوا من بدائعه مائة نوع او تزيد .

قلنا ، يا صاحبي ، آنفاً ان احتباك العبارة ودقة الاشارة من ظواهر بلاغة القرآن ، وها نحن نورد لك بعض الآيات لتتبين ذلك بنفسك : « فانْ اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ . وانا اذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم ، فان الانسان كفور[1] » . « سيماهم في وجوههم من اثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه ، فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا ، وعملوا الخ الآية » ـ [2] .

« قال بل القوا ، فاذا حبالهم ، وعصيهم ، يخيل اليه من

---

(١) سورة الشورى آية ٤٨ .

(٢) سورة الفتح . آية ٢٩ .

سحرهم انها تسعى » [1] —

والادلة كثيرة في آى القرآن ، على احتباك العبارة ، ودقة الاشارة . والذي ينعم النظر في ما جاء في هذا الباب من آي القرآن يلمح فيها الحذف والتقدير .

ومن ظواهر بلاغة القرآن ، حسن الايقاع ، والرنات المطربة ، وتتجلى في اسلوبه الروعة الخطابية ، والوثبات العاطفية ولذلك نرى فيه كثيراً من ضروب البلاغة كالتكرار ، والتمثيل ، والتفخيم ، وما شاكلها . ويمتاز القرآن ايضاً بتقديم القيود على المقيدات ، والصفات على الموصوفات . واليك بعض الادلة على ذلك من آي القرآن ننقلها عن « مفتاح السعادة » : وقد اخذها صاحبه عن احكام الرأي في أحكام الآي » للشيخ شمس الدين بن الصائغ :

تقديم ماهو مؤخر في الزمان نحو : «فلله الآخرة والاولى»[2]

تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد نحو : « ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » — [3] .

تقديم الضمير على مـا يفسره ، نحو : « فأوجس في نفسه

---

(١) سورة طه . آية ٦٦

(٢) سورة النبي آية ٢٥

(٣) سورة الاسراء آية ١٣

خيفة موسى »[1] .

ايثار تذكير اسم الجنس ، نحو : « اعجاز نخل منقعر »[2] .

« تأنيث « « ، نحو : « أعجاز نخل خاوية »[3] .

ايراد أحد القسمين غير مطابق للاخر ، نحو : « فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين »[4] . (ولم يقل الذين كذبوا)

ايثار اغرب اللفظين ، نحو : « قسمة ضئزى »[5] (ولم يقل جائرة) حذف اسم المفعول : « ما ودعك ربك وما قلى »[6]

الاستغناء بالافراد عن التثنية . نحو : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »[7] (بدل فتشقيان) .

اجراء غير العاقل مجرى العاقل نحو : «رأيتهم لي ساجدين»[8] (عن القمر والنجوم) .

العدول عن الماضي الى الحاضر ، نحو : « فريقـــاً كذبتم

---

(١) سورة طه آية ٦٧

(٢) سورة القمر ٢٠

(٣) سورة الحاقة آية ٧

(٤) سورة العنكبوت ٢

(٥) سورة النجم آية ٢

(٦) سورة الضحى آية ٣.

(٧) سورةطه آية ١١٧ .

(٨) سورة يوسف آية ٤ .

وفريقا تقتلون »[1]

تغيير بنية الكلمة ، نحو : « طور سينين »[2] (بدل سيناء)

وقوع اسم المفعول بدل الفاعل ، نحو : «حجابا مستوراً » بدل (ساتراً) .

ولنضرب لك الان بعض الامثال على روعة الانتقال في القرآن ، لتقف بنفسك عليها ، وترى كيف ينتقل من الخبر الى السؤال ، ومنه الى النداء ، ثم الالتفات انتقالا يزيد في تأثير الكلام ، وقوة وقعه : « ان الذين يلحدون في آياتنا ، لا يخفون علينا . أفمن يلقى في النار خير ، ام من يأتي آمنا يوم القيامة . اعملوا ما شئتم ، انه بما تعملون بصير »[3]

« فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم »[4] .

« واضل فرعون قومه وما هدى »[5] .

« يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم ، وواعدناكم

---

(١) سورة آية

(٢) سورة التين آية ٢ .

(٣) سورة فصلت اية ٤ .

(٤) سورة طه اية ٧٨ .

(٥) « « « ٧٩ .

جانب الطور الايمن ، ونزلنا عليكم المن والسلوى »[1]

« واذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل اناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين »[2].

وقد ذكر الصفدي في «الغيث المنسجم في شرح لامية العجم» نوعاً آخر من الالتفات[3] اسماه الالتفات ، من اسلوب الى اسلوب ، او الخروج من نوع الى نوع ، وسلوك سبيل بعد سبيل ، حتى عد التخلصات الشعرية منه . وقال الاستاذ انيس المقدسي في معرض كلامه عن ظواهر بلاغة القرآن في « تطور الاساليب النثرية » .

« فاذا التفتنا الى القرآن نجد هذا النوع من الالتفات عاماً، فكثيراً ما ينتقل في السورة الواحدة من قصة الى قصة ، ومن موقف الى موقف انتقالا فجائياً قد يجد فيه القاريء ، او السامع تطرية لنشاطه . واذا دققنا النظر في الالتفات ، وبحثنا في الغاية من العدول عن صيغة الى اخرى ، او عن موقف الى

(١) « « ٨٠ .

(٢) « البقرة اية ٦٠ .

(٣) الالتفات ويراد به الانتقال من صيغة الي صيغة .

آخر ، وجدنا ان ذلك لا يكون الا لخصوصية بلاغية كالتعظيم او التحقير ، او التوكيد ، او الايضاح ، وهو لذلك من اوجه البلاغة بل من اركانها الرئيسية ، ثم ضرب الامثال على هذا النوع من الالتفات من آي القرآن فليراجع في « تطور الاساليب النثرية » .

واما امثال القرآن فهي قسمان . جاء القسم الاول منها على سبيل التشبيه ، ومنه قوله تعالى في سورة الرعد: « قل هل يستوي الاعمى والبصير وهل تستوي الظلمات والنور ، ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار ، انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله . كذلك يضرب الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ماينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الأمثال[1] » . ومنه ما جاء في سورة الكهف « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على

---

(١) سورة الرعد آية ١٦ – ١٧

كل شيء مقتدراً »[1] .

واما القسم الثاني فقد جاء امثالا وحكما بالغة ، وهي كثيرة نثبت منها هنا ، قوله تعالى : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث »[2]

« لا يكلف الله نفساً الا وسعها »[3]

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة »[4]

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »[5]

« قضي الامر الذي فيه تستفتيان »[6]

« الآن حصحص الحق »[7]

« وما على الرسول الا البلاغ »[8]

ومن التمثيل مـــا ورد في القرآن على سبيل القصص وهو كثير . والقصص نفسه كثير في القرآن متفرق فيه ، يكاد يشغل

---

(١) سورة الكهف آية ٤٥

(٢) سورة آية

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٦

(٤) سورة آية

(٥) سورة آل عمران ٩٢٠

(٦) سورة يوسف آية ٤١

(٧)

(٨) سورة يوسف آية ٥١

معظم اجزائه ، كقصص الانبياء ، واخبار اصحاب الاخدود واصحاب الكهف . وقد اعاب المستشرف نولدكه Noldecke اسلوب القصص القرآني ، وتراءى له الضعف فيه ؛ وحجته في ذلك عدم تسلسل الخبر ، وكثرة التكرار في العبارات القرآنية وكأني بنولدكه أراد أن يقارن بين اسلوب القصص في القرآن وبينه في التوراة . وهذا خطأ لاختلاف الغرض فيهما ، ولان القرآن يكتفي بالاشارة تارة ، ويكرر اخرى ، ويطيل ثالثة. ويأتي القصص في القرآن على سبيل التذكير والتهويل في اسلوب خطابي. وهذا ما يجعل تسلسل الخبر فيه متعذراً . واما التوراة ففيها حوادث تاريخية منظمة تجري فيها الاخبار مجراها الواضح العادي ؛ اضف الى ذلك الامثال ، واسفار الانبياء ، والاناشيد الروحية والحق ان بحث نولدكه حري بالدرس فليراجع في دائرة المعارف البريطانية . بقي ان نجيب ، يا صاحبي ، على سؤال اختلف في الاجابة عليه الباحثون . وهو : أعربي القرآن ام اعجمي ؟ . والجواب على السؤال في القرآن صريح . ولا يعني وجود بعض الالفاظ الاعجمية فيه انه اعجمي كأباريق ، وسندس ، واستبرق . فالعرب عرفوا هذه الالفاظ وعربوها وقد عدد هذه الالفاظ ، وشرح معانيها ، ونقب عن اصل كل

لفظة الاستاذ انيس المقدسي في معرض كلامه عن غريب القرآن في « تطور الاساليب النثريه » فليراجع . ولا مجال للشك في ان القرآن عربي لغته الحجازية وليس بأعجمي . ومجمل القول ان القرآن في اسلوبه لا يجارى لما فيه من ضروب البلاغة ، وحسن السبك وفصيح العبارة ، وقوة التأثير على النفوس وجمال الايقاع وحسن التخلص من موضوع الى آخر من قصص ووعيد وتهديد وتشريع ويرجع اليه وحده الفضل في حفظ اللغة العربية وقد اكسبها مرونة والفاظاً لم تعهدها من قبل .

انتهى الجزء الثاني

اسئلة

١ تحدث عن الامثال القديمة

٢ تحدث عن سجع الكهان

٣ تحدث عن الخطابة في عهد الانشاد

فهرست الجزء الثاني

منشورات المؤلف

النفائس

الوصف في شعر النابغة الذبياني

وصحة نسبة الشعر الجاهلي

الوصف في شعر امرىء القيس

مراحل النثر القديم الجزء الاول

مراحل النثر القديم الجزء الثاني

مراحل النثر القديم الجزء الثالث (تحت الطبع)

الوصف في شعر الاعشى (يظهر قريباً)

الوصف في شعر زهير (جاهز للطبع)

الوصف في شعر لبيد (جاهز للطبع)

الوصف في شعر طرفه (جاهز للطبع)

الوصف في شعر عنترة (جاهز للطبع)

الوصف في شعر عمرو بن كلثوم (جاهز للطبع)

القرآن اول كتاب نثري عند العرب	(جاهز للطبع)
اعجاز القرآن	(جاهز للطبع)
بلاغة القرآن	(جاهز للطبع)
الوصف في شعر النابغة الجعدي	(جاهز للطبع)
الخطابة في العصر القديم	(جاهز للطبع)
الخطابة في العصر العباسي	(جاهز للطبع)
عبد الله ابن المقفع	(جاهز للطبع)
الجاحظ	(جاهز للطبع)
الحسن بن سهل	(جاهز للطبع)
فن الترسل في العصر العباسي	جاهز للطبع
المعري	« «
الحريري	« «
بديع الزمان الهمزاني	« «
ابن عبد ربه والعقد الفريد	« «
الاصبهاني صاحب الاغاني	« «
ابن العميد	« «
القاضي الفاضل	« «

مؤلفات اخرى

الحب والجمال — الطبعة الثانية جاهزة للطبع

احاديث الامسيات (نفذ) وصادرته الحكومة الاردنية

على مسرح الحياة (الجزء الاول)

مصرع العدالة . منع من دخول الاردن والعراق والمغرب العربي والسعودية والمحميات

ضحايا وقرابين . صادرته الحكومة العراقيـــة ومنع من دخول الاردن والسعودية والمغرب العربي والكويت والبحرين واليمن والمحميات

خلجات واحاسيس (تحت الطبع)

على مسرح الحياة (الجزء الثاني يصدر قريباً)

منتخبات من التراث الانساني — يصدر قريباً

هل العرب بشر ؟ — يصدر قريباً

ايام مع ليلى الجميلة — يصدر قريباً

ذات العينين الخضراوين — يصدر قريباً